القوة الإنجازية للأفعال الكلامية في رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز

إعداد الباحثة: زينب محمد النعاس الطاهر

ملخص البحث:

تسعى هذه الدراسةُ لإظهارِ مدى وعي الأدباء القدامى بالآلياتِ التي تحققُ التواصل بين المرسل والمتلقّي ومدى التأثير عليه، بالنظر في الأفعال الكلامية الواردة في رسالة الحسن البصري رحمه الله لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، بِبَيان القوةِ الإنجازيةِ المباشرةِ وغير المباشرة فيها؛ حتَّى يتسنَّى لنا كشفَ المقاصدِ الظاهرةِ والخفيَّةِ، فتأويلُ النصوصِ وقراءتُها يُعدّ نشاطًا انفعاليًا، والنصوص الأدبية هي أداةٌ لإثارة المتلقي من خلال ما تحمله من معانٍ ودلالاتٍ، وما تحقّقُه من تواصل بينها وبينه.

الكلمات المفتاحية: الأفعال الكلامية– القصدية– القوة الإنجازية.

Abstract

The performance power of verbal verbs in the message of Al-Hasan Al-Basri to Omar bin Abdul Aziz

The function of language is not limited to informing only. Al-Zamakhshari says: “The increase in construction is an increase in meaning. Through the previous saying, it becomes clear to us that the language goes beyond its news function, to another function that it refers to with the meanings and connotations it carries in the speech act, and is required by the context of the text. As well as their relationships according to the context in which they are mentioned. By looking at the verbal acts in Al-Hassan’s letter to Omar bin Abdul Aziz, it shows the direct and indirect Illocutionary force in them; It is possible for us to reveal the apparent and hidden intentions of these actions, which gave them an impetus in meanings and a high expressive energy, reflecting the literary taste of the ancient writers, and their high ability to influence the recipient. The recipient, in turn, seeks to reveal the hidden meanings of the texts by analysing their apparent meanings represented in the direct Illocutionary force, to the hidden meanings represented in the indirect illocutionary force; which are required and understood from the context of the text contained therein.

Keywords: Speech acts - intentionality- Illocutionary force.

المقدمة:

كشفت وصايا الحسن البصري ومواعظُه قدرتَه وكفاءتَه الأدبية بما امتازت به من فصاحة اللفظ، وبلاغة المعنى، وإثارة الشعور، فكانت تُبهر سامعها بما أشاع فيها من الإيمان الشديد والتقوى، والحث على ترقب لقاء الله، والشوق إلى الآخرة، وتسعى الباحثةُ من خلال هذه الدراسة إلى تحليل هذا التراث الأدبي لاستجلاء نفائسه، عن طريق منهج التحليل النصي الذي يلتقي مع البلاغة القديمة، "وقد مثّلت البلاغة في كثير من جوانبها العلاقة بين الأسلوب والمعنى، وصلة هذا الأسلوب بما تتعرض له الجملة هو الذي يدخل تحت ما سمي بعلم المعاني، الذي يختص بتتبع سمات تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره."(عبد المطلب، 1994: 260.)، إذ إنّ التغيير في بناء التراكيب والتصرف في نظم الجملة ونسج العبارت يأتي تبعاً لحاجة المعاني، وحاجة الإحساس بها، وهو وسيلة تعين على دقة التعبير، فكل تغير، أو تصرف بلاغي في أوضاع الألفاظ في الجملة، أو في أوضاع الجمل في الكلام سيتبعه تغيير في المعنى، أو في المضمون يفطن إليه ويستشفه كل ذي حس لغوي دقيق وملم بدقائق اللغة ودلالاتها. ويرى سعيد بحيري أنّ قصد المرسل منتج للنص اللُّغوي، وأنّ النص كاشف للقصد التواصلي (بحيري، د.ت.).

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنه يحاول تقديم فهم جديد للنصوص الأدبية التراثية؛ فالنصوص الأدبية الإسلامية التي تلمس فيها جانب الإبداع الفني، والفن الأدبي موجودة، قديماً وحديثاً، هي التي يجب أن تكون موضع الاعتبار، عبر تطبيق المعايير النصية في التأويل، والإفادة من هذه المعايير، ولا سيما الأفعال الكلامية في الوقوف على بعض النصوص النثرية وتخصيصها بالدراسة والتحليل، وإمكانية

تطبيق هذه المفاهيم المعاصرة على التراث العربي القديم؛ لإبراز السمات الفنية التي ميَّزت هذه النصوصُ الأدبية.

سبب اختيار الموضوع:

تتجلَّى مشكلةُ البحث في دراسة رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز وذلك بتحليلها بصورة تعكس ثراء العقل العربي، بدقة التعبير، وصدق الأداء دونما إسراف أو تقصير أو عجز، فقد استعان الأدباء في التراث العربي القديم بالفنون البلاغية المتنوّعة لعلوم البلاغة الثلاثة: (علم البيان، وعلم المعاني، وعلم البديع) –عن وعيٍ أو غير وعيٍ– لتُؤدي ما وراءها من قيمٍ شعوريةٍ ودلالاتٍ معنويةٍ، فركزت أغلب الدراسات المتقدّمة للتراث الأدبي على دراسة بناء التراكيب، ونظام الجملة، ونسج العبارات؛ وقللت الاهتمام بعناصر الخطاب المختلفة؛ (النَّص والسياق)، والظروف المحيطة بالنَّص، وظروف المتلقّي. فوجدت الباحثة التوجه إلى الأفعال الكلامية الآلية المناسبة في تحليل رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز وفق معطيات تحليل الخطاب قديما وربطه بالمعايير الحديثة، والتي ينصبُّ اهتمامُها على النَّص إنتاجا وتلقيا، فتخلق حالة من التواصل بين القارئ والنص؛ ممَّا يُسهم في الوصول إلى القيمة الفنية لهذه النصوص وإبراز معانيها في أحسن صورة أدبية.

هدف البحث:

اعتماداً على ما سبق ذكره في أهمية البحث فإنَّ أهداف البحث تتضِح فيما يأتي:

1. بيان دور التأويل في إعادة قراءة التراث العربي القديم.
2. الوقوف على القوة الإنجازية المباشرة للأفعال الكلامية، وإبراز القوة الإنجازية غير المباشرة لهذه الأفعال في تحليل رسالة الحسن البصري؛ لإظهار القيمة الأدبية لهذا الموروث.

سؤال البحث

ما مدى تأثير الأفعال الكلامية في رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز؟

الدراسات السابقة

اطلعت الباحثة على عدد من الكتب والبحوث المتعلقة بهذه المادة العلمية، ومنها على سبيل المثال:

1- بوقرة، نعمان. (2006). "نحو نظرية لسانية عربية للأفعال الكلامية قراءة إستكشافية للتفكير التداولي في المدونة اللسانية التراثية". مجلة اللغة والأدب. الجزائر، ع17.

2- الكنج، جميل قاسم. (2014). تحليل مفاهيم القصدية والمقبولية في نماذج نصية من البيان والتبيين للجاحظ، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، الجامعة اللإسلامية العالمية بماليزيا.

3- صويلح، فوزي علي. (2017). "القوة الإنجازية في المثل العربي القديم". مجلة الإشعاع. الجزائر، ع8.

4- العتيبي، تهاني سهل. (2018). "تعديل القوة الإنجازية". مجلة اللغة العربية وآدابها. الجزائر م6، ع1.

5- العبد القادر، بندر بن علي. (2021). "القوة الإنجازية للأفعال الكلامية دراسة تداولية تطبيقية". مجلة الأثر. الجزائر، م18، ع1.

منهج البحث

ستسلك الباحثة في هذه الدراسة المناهج الآتية:

أولا: **المنهج الوصفي:** حيث ستقوم الباحثة بجمع المعلومات عن مفاهيم الأفعال الكلامية لدى

الغربيين والمحدثين؛ لتقديم رؤية واضحة لهذه المفاهيم وموازنتها بين التراث والحداثة.

ثانيا: **المنهج التحليلي:** وسيتم في هذا البحث تحليل رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز وفق المنهجية المقترحة والتي تتضمن الآتي:

أولا: التأويل بمعناه الحديث وآلية توظيفه في استنطاق النصوص التراثية.

ثانيا: القصدية ونظرية الأفعال الكلامية.

ثالثا: القوة الإنجازية المباشرة وغير المباشرة.

أولا: التأويل بمعناه الحديث وآلية توظيفه في استنطاق النصوص التراثية.

يُعد التأويل من الأدوات المهمة في إيضاح المعنى وبيانه، حيث تميزت اللغة العربية بثراء مصطلحاتها وأساليبها، فكان الرجوع للتأويل وسيلة ضرورية لفهم المعاني واستنطاق النصوص، وكشف مقاصدها، فتعدد القراءات يعكس "الدور المهم في الكشف عن سر خلود النصوص الأدبية الفذّة، ذلك السر الذي يكمن في الفرضية الجوهرية في تعدد المعاني، الناجم عن عدم إحالة النص على مشار إليه معين، ويكون النص على وفق ما سبق – محاوراً نشطاً للقارئ، ويكون القارئ فاعلاً أساسياً في تنشيط النَّص للإيحاء بدلالات جديدة ومتغيرة عبر تاريخ تأويله"(ناظم،1994: 134.)؛ فالتأثير الذي يحدث بين النص ومتلقيه هو السبيل لإدراك عمق النّص، وبناء معناه واستنطاق دلالته.

فالتأويل خطوة أساسية لإحياء التراث، واستكشاف كنوزه، واستجلاء نفائسه، وتقديم فهم آخر لهذه النصوص بتعدد دلالاتها، وتداخل معانيها، فالفكرة الرئيسة في علم اللغة النصي أن النص يُعد الرئيس في التحليل والوصف اللغوي، ومن أهدافه أنّه يشير إلى جميع أنواع النصوص، وأنماطها في السياقات المختلفة. فاللغة أداة ووسيلة يسعى المتكلم إلى تحقيق أهدافه من خلالها. إذ إنّه "تعدّ اللغة الطبيعية أحد

أنظمة العلامات التي يستعملها الإنسان، لتسجيد قصده وتحقيق هدفه؛ أي لتحقيق الإفهام والفهم بين أطرافه من جانب، وتحقيق مايصبو إليه هو من جانب آخر. بيد أنّ أهميتها تتجاوز ذلك، إلا أنها هي الأداة الأهم؛ فلا يقتصر دورها على وظيفة نقل الخبر، أو وصف الواقع، بل ينجز الإنسان بها أعمالا لايستطيع إنجازها من دونها" (الشهري، 2004: 25.). وتقوم هذه الدراسة ببيان تداولية الخطاب في "رسالة الحسن البصري" وتوظيف التأويل لاستنطاق التراث فهو أوسع من أن يقتصر على حدود الجملة، فيتّسع ليشمل السياق النصي وأطراف العملية التواصلية من المرسل والمتلقي، وما يتحقق بينهم من تواصل، فكل مرسِل له مقصد من خطابه وفق ظروف معينة وسياق لغوي متواضع عليه ليتمكن من الإفهام، ويتحقق بذلك الفهم من المتلقي، ويحصل القصد من الخطاب، وتتحقق به الفائدة.

ثانيا: القصدية ونظرية أفعال الكلام

تُعد نظرية الأفعال الكلامية من أبرز النظريات التي انبثقت عن اللسانيات التداولية، وواحدة من أهم المجالات التي تتكئ عليها؛ لاتساع مجالها حيث تدرس هذه النظرية الأفعال، ودور اللغة الإنجازي من تأثير وتبليغ، فتمثل اللغة البنية الصغرى في الدراسات التداولية، والتي ينبغي الوقوف عليها وتحليلها للانتقال من هذا الأساس إلى البنية الكبرى، التي تعكس الدلالات المتعددة لهذه الأداة. (نحلة، 2002.).

فتهتم هذه النظرية بالاستعمال اللغوي، ودور السياق في التواصل الانساني، وكذلك المتكلم وعلاقته بالسامع، وما يرافق الكلام من إيحاءات وحركات وتعابير فضلا عمَّن يشاركون في الاتصال اللغوي، وبيئة الحدث، وقدرة السامع على فهم وإدراك مقاصد المتكلم، ومدى تأثره واستجابته لهذه المقاصد، وما يتطلبه التواصل من معانٍ مقامية.

ومفهوم الفعل الكلامي هو "نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية، وفحواه أن كل منطوق

ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، ويُعدّ نشاطًا ماديًا نحويًا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية (كالطلب، والأمر، والوعد، والوعيد...إلخ)، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي (كالرفض، والقبول)؛ ومن ثم فهو يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المتلقي –اجتماعيّا، أو مؤسساتيا– ومن ثم إنجاز شيء ما". (صحراوي، 2005: 40.).

وهو في ذات السياق الذي وصف فيه محمد مفتاح نظرية المقصدية بأنها: "وسط بين طرفين متضادين: التأويلات اللامتناهية التي قد تكون متناقضة، والتأويل الحرفي الوحيد. إذ تنطلق من ثبات المعنى لثبات مقاصد المؤلف، ومن تغيرات التأويل الخاضع لإلزامات عصر المؤلف والسياق الذي يعيش فيه". (مفتاح، 1990: 106.).

وتأتي أهمية هذه النظرية من أثرها في تغيير النظرة التقليدية في التعامل مع الظاهرة اللغوية؛ والتي تركز على الجانب الوصفي للغة، فقد نظرت إلى اللغة باعتبارها قوة فاعلة في الواقع ومؤثره فيه، فهي مجال أساسي "لدراسة مقاصد المتكلم ونواياه، فالمقصد يحدد الغرض من أي فعل لغوي، كما يحدد هدف المرسل من وراء سلسة الأفعال اللغوية التي يتلفظ بها، وهذا ما يساعد المتلقي على فهم ما أرسل إليه. ومن ثم يصبح توفر القصد والنيّة مطلباً أساسيًّا وشرطاً من شروط نجاح الفعل اللغوي، الذي يجب أن يكون متحققاً ودالاً على معنى" (بوقرة، 2006: 170.).

وقد تبنى أسس هذه النظرية مجموعة من فلاسفة اللغة التحليلين منهم: أوستين وسيرل وفتجنشتاين، وجرايس. وسنعرض من خلال هذه الدراسة أهم آراء أوستين وسيرل بخصوص نظرية أفعال الكلام.

يقول أوستين: "وإن فعل "التكلم بشيء ما "، بالمعنى الواسع لهذا المركب إنما اسميه بل أمنحه

هذا اللقب وهو إنجاز فعل الكلام locutionary act ومن هذا (بالسياق فإن دراسة العبارات المتلفظ بها هي في الحقيقة، ولنفس السبب دراسة أفعال الكلام، وإن شئت قلت دراسة الوحدات الشاملة لعناصر التكلم speech اللغوي. (أوستين: 1991: 115.).

فيتضح من خلال ما سبق ذكره أن مفهوم "الفعل الكلامي" هو الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد نطقه بمنطوقات معينة، أو العمل الاجتماعي أو المؤسساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام، من خلال منظومة من الأفعال كالنطقية والإنجازية والتأثيرية. (الصراف: 2010. الصراف: 2010.).

وقد حاول أوستين من خلال أبحاثه الرد على الفلاسفة الذين اختزلوا مهمة اللغة في إنتاج تراكيب خبرية يكون الحكم عليها إمّا بالصدق إذا طابقت الواقع وإما بالكذب إذا لم تطابقه، وهذا التحديد لمهمة اللغة أهمل الجمل غير الوصفية، على اعتبار أنها لا تحمل معنى.

وتتلخص نظرية الأفعال الكلامية لدى أوستين في فكرتين أساسيتين هما:

أ- رفض ثنائية الصدق والكذب.

ب- الإقرار بأن كل قول هو عبارة عن فعل أو عمل. (دلاش، 1992.).

فقد بدأ أوستين أبحاثه من منطلق معارضته لآراء النزعات الصورية التي لا تهتم إلا بالجمل الخبرية، عازماً على رسم مسلك جديد لتناول الظواهر التي استهدف البحث فيها. "فاللغة ليست مجرد أداة للإخبار والوصف، بل وسيط لبناء الواقع والتأثير فيه وتحويله، وعليه فموضوع البحث يتركز على ما نفعله بالتعابير التي نتلفظ بها (أفعال الكلام)" (الباهي، 2004: 123.)، فمنطلق أوستين الذي وضع من خلاله نظرية الأفعال أن من الكلام ما يكون فعلا، أو إيقاع لفعل بلفظ يقارنه في الوجود.

فالفعل في نظرية أفعال اللغة لدى أوستين يتحقق عبر مراحل ثلاث فهو "يميز بين ثلاثة أنواع

من الأعمال اللغوية: العمل الأول هو العمل القولي، وهو الذي يتحقق ما إن تلفظ بشيء ما؛ أما الثاني فهو العمل المتضمن في القول، وهو العمل الذي يتحقق بقولنا شيئا ما؛ وأما الثالث فهو عمل التأثير بالقول، وهو العمل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئاً ما (موشلار وروبول، 2003.). فقد توصل أوستين إلى أن هناك ثلاثة مستويات من الأفعال تتضمن: التلفظ وفعل التلفظ، وأثر فعل التلفظ، أو ما يسمى بالفعل الإخباري والفعل التحقيقي، والفعل التأثيري.

أولا: الفعل الإخباري: ويقصد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة، ذات بناء نحوي سليم، ويدل على إنتاج قول ذي دلالة تخضع للتركيب. ولهذا الفعل ثلاثة مستويات تشمل المستوى الصوتي: والذي يعكسه التلفظ بسلسة من الأصوات. مثل: قول الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز: "أنَّ الله جعل الإمام العادل قوام كلّ مائل" (ابن عبد ربه، 1940: 25.)، فهذا فعل إخباري له دلالة.

أما المستوى التركيبي: وهو إصدار ألفاظ، أو كلمات طبقاً لقواعد لغة معينة.

أما المستوى الدلالي: وهو عبارة عن استعمال الأصوات ضمن معانٍ وحالات محددة. (أوستين،1991.).

ثانياً: الفعل الإنجازي: وهو فعل متضمن في القول، إذ إنه عمل ينجز بقول ما، أو العمل الذي ينم عن الحديث، والذي يمارس قوة على المتخاطبين.

ثالثا: الفعل التأثيري: وهو الناتج عن القول بالتأثير في المخاطب، أو السامع، سواء أكان تأثيرا جسدياً، أم فكرياً، أم شعورياً، في سياق محدد. (نحلة، 2002.).

وترتبط هذه الأفعال بعلاقة جوهرية، فبالتلفظ والخطاب يتحقق مايلي:

- يقول المرسل شيئاً ما إلى المرسل إليه.

- يفعل المرسل فعلا ما في ذلك القول الموجب إلى المرسل إليه.

- يؤثر المرسل على المرسل إليه بواسطة ذلك الفعل.

أمَّا جون سيرل (John Searle) فقد رصد النواقص التي طالت نظرية الأفعال الكلامية عند أوستين، وحاول أن يعيد صياغة أفكاره وتجديدها، وذلك عن طريق تقديم بعض التعديلات، والإضافات والتي تختص بالفعل الإنجازي "ويرى سيرل أيضاً أن الفعل الكلامي من النوع المسمى بالفعل الإنجازي هو وحدة الاتصال الإنساني باللغة. وكذلك الرأي عند دانيال فاندرفيكن؛ فالفعل الإنجازي في رأيه هو الوحدة الأولية لمعنى الجملة، وهو الوحدة الأولية للاتصال." (العبد، 2004: 137.)، وتتلخص آراء سيرل في ما يأتي:

أولا: اقترح "سيرل" تقسيم أفعال الكلام إلى أربعة بدلاً من ثلاثة، فالكلام من وجهة نظر "سيرل" محكوم بقواعد مقصدية، ويمكننا تحديد هذه القواعد وفق أسس منهجية واضحة ومتصلة باللغة. (نحلة،2002.) ويرى سيرل أن المتكلم يقوم بأربعة أفعال من خلال التكلم:

1- فعل القول: أي إنجاز فعل التلفظ بعبارة لغوية طبقاً للقواعد اللغوية والتركيبية، فيشمل الجوانب الصوتية والنحوية، والمعجمية.

2- الفعل الإخباري (Propositional act) ويتضمن:

أ- الفعل الإحالي: والذي يساهم في الربط بين المتكلم والسامع.

ب- الفعل الإسنادي: وهو أن نسند لشخص أحلنا عليه فعل شئ ما؛ وننسب إليه فعل ذلك.

3- الفعل الإنجازي (Illocutionary act): وهو يحمل مقصد الناطق به، من استفهام وطلب

وأمر وتمني، وغيرها.

4- الفعل التأثيري (Perlocutionary act): وهو الفعل الناتج عن القول. إلا أن هذا الفعل ليس له أهمية كبيرة عند سيرل. (العبد، 2004.).

ويشير سيرل إلى وجود دلائل عِدَّة تدل على القوة الإنجازية، والتي من شأنها أن تسهم في إبراز نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بتلفظه لجملة ما.

ثانيا: حاول سيرل أن يطور من تصور أوستين لشروط الملازمة أو الاستخدام فجعلها أربعة شروط، هي:

1- شرط المحتوى القضوي: ويقصد بالمحتوى القضوي معاني مفردات الجملة مضموما بعضها ببعض، وهو فعل في المستقبل مطلوب من المخاطب.

2- الشرط التمهيدي: وهو القدرة على تنفيذ الفعل المنصوص عليه داخل المحتوى القضوي.

3- شرط الإخلاص: صدق المتكلم في إنجاز الفعل، بحيث يكون مخلصاً في أدائه بما يناسب قدرته.

4- الشرط الأساسي: وهو محاولة المتكلم التأثير في المخاطب لينجز الفعل. (نحلة، 2002)

ثالثاً: راجع سيرل تقسيم أوستين للأفعال الكلامية، وصنفها على النحو الآتي:

1- أفعال تمثيلية: وهي أفعال يلتزم المتكلم بموجبها بصدق ما يعبر عنه وتشمل: التأكيد والتحديد، والوصف.

2- أفعال توجيهية: وهي أفعال من خلالها يوجه المتكلم المتلقي للقيام بفعل شيء ما وتشمل الأمر، النهي، الطلب.

3- أفعال إلزامية: وهي أفعال يلتزم المتكلم من خلالها بالقيام بشئ ما في المستقبل، ومن أمثلتها الوعد والحلف والضمان، وغيرها.

4- أفعال تعبيرية: وهي التي تمثل التعبير عن السيكولوجية (النفسية) للمتكلم، وتعكس مشاعره مثل الاعتذار والاستحسان والتهنئة والندم، وغيرها.

5- أفعال إعلانية: وهي الأفعال التي هدفها إحداث تغيير عن طريق الإعلان ومن أمثلتها: الإعلان، الإخبار، الإعلام ...

ويصف سيرل القصدية بقوله: "فالقصدية هي سمة العقل، التي توجه بها الحالات العقلية، أو تتعلق بها حالات عقلية تشير إليها، أو تهدف نحوها في العالم، وما يميز هذه السمة أن الشيء لا يحتاج أن يوجد فعليا، لكي تمثله حالتنا الشعورية". (سيرل، 2006: 102.) فاللغة هي وسيلة العقل في التعبير عن الواقع واللاواقع وهي الحالات الشعورية الداخلية، من أفكار ورؤى وتصورات ومشاعر وأحاسيس، يعكسها الخطاب وتحمل قصد المتكلم، "لم يكن في لغة من لغات البشر، ولا كان نوعا من أنواعه وأساليبه في اللغة الواحدة، بالذي يكفي في الدلالة على مراد اللافظ، دلالة لا تحتمل شكا في مقاصده من لفظه، أعني الدلالة المعبر عنها بالنص، الذي يفيد معنى لا يحتمل غيره، ولكن تفاوت دلالة ألفاظ اللغات ودلالة أنواع كلام اللغة الواحدة، تفاوتا في تطرق الاحتمال إلى المراد بذلك الكلام، فبعض أنواع الكلام يتطرقه احتمالا أكثر مما يتطرق إلى بعض آخر، وبعض المتكلمين أقدر على نصب العلامات في كلامه على مراده، منه من بعض آخر". (الشهري، 2004: 208.).

فمن خلال ما سبق نلحظ أن تداولية أفعال الكلام أتاحت لتحليل الخطاب رؤية لسانية؛ من حيث إنّها نظرت للكلام بصفته فعلاً لغوياً يعكس قصد المتكلم. والقصد من هذه الأفعال إنجاز الأشياء

بالكلمات، أو صناعة أفعال، وسرد مواقف اجتماعية وذاتية بالخطاب؛ أي تسعى إلى التأثير في المخاطب بحمله على فعل، أو ترك، أو تقرير حكم من الأحكام، أو التعبير عن حالة نفسية معينة، فاللغة تتجاوز وظيفتها الإخبارية إلى وظيفة أخرى، بما تحمله من معانٍ ودلالاتٍ متضمنة في القول.

ثالثا: القوة الإنجازية المباشرة وغير المباشرة

إن قوة المنطوق الإنجازية جزء من بنيته الدلالية، ومن خلال قراءة أدبيات أفعال الكلام تدل على أن الفعل الكلامي يمتلك أغراضاً إنجازية متباينة؛ أي مباشرة وغير مباشرة، بحسب السياق، وملابسات استعماله. فتداولية الأفعال الكلامية تدور حول المسافة بين القول والمقصد وطبقات المعنى المتمددة، بين معنى قضوي (حرفي)، والفعل الذي ينجزه المتكلم في السياق. (العبد، 2014.).

وقد ذهب ديكرو إلى أن كل نشاط يقوم به شخص معين يمكن اعتباره فعلاً أو عملاً إذا كنا نحدده انطلاقا من التغيرات التي يحدثها أو يريد إحداثها في العالم، لذا فقد تميز الفعل اللغوي بعدد من الخواص، على النحو الآتي:

أولا: تتمثل في كون الفعل اللغوي يحقق فعلاً معينا؛ أي نشاطا يهدف إلى تحويل الواقع.

ثانيا: إنه فعل قانوني، فالفعل اللغوي يهدف إلى خلق مجموعة من الحقوق والواجبات المتعلقة بالمتحاورين، ومنها القيمة القانونية المسندة إليه، والتحويلات التي يسعى إلى تحقيقها ذات طبيعة قانونية، وهي تحويلات مفترضة أو مرغوب فيها فقط.

ثالثا: إنه فعل مؤسساتي، فكثير من الأفعال اللغوية يرتبط إنجازها وتحقيقها بعدد من المؤسسات الاجتماعية، لكن هذه الأفعال تنجز داخل اللغة وبواسطتها، ومن هنا تسميتها بالأفعال الكلامية أو اللغوية.

رابعا: إنه فعل قصدي، فمن خلال التعرف على قصد المتكلم، يتم التعرف على الفعل اللغوي المنجز، فلو قال متكلم لآخر: "هناك خطر يحدق بك"، فقد يكون القصد من كلامه هذا الإخبار أو التنبيه أو السخرية.

خامسا: إنه فعل سياقي، بحيث لا يمكن النظر إليه بمعزل عن السياق. فإذا أخذنا جملة من قبيل: "سأغادر الآن" فإننا نجد أنها تفيد

الإخبار في سياق ما، وفي سياق آخر قد تفيد الوعد، وقد يكون لها معنى التهديد في سياق ثالث.

سادسا: إنه فعل عرفي، فالفعل اللغوي لكي يكون ناجحاً، لابد أن يستجيب لمجموعة من الشروط المتعلقة باستعماله، والتي تحدد الإطار الذي يكون فيه الفعل اللغوي ملائماً للسياق الذي يظهر فيه. ومن مظاهر هذه الشروط:

- الظروف والأشخاص المشاركون في إنجاز الفعل اللغوي.
- مقاصد الأشخاص.
- نمط التأثير المرتبط بإنتاج الفعل اللغوي وقوليته. (العزاوي، 2006.).

فمن خلال الخواص والشروط السابقة للفعل اللغوي، نلحظ أن المقصدية التامة للخطاب لا تصاغ إلا من خلال ألفاظ تحمل معاني يمكن تحديدها بصورة في الذهن، وأن اللفظ إنما هو انعكاس لهذه المعاني، والشكل الظاهر للعيان (لحميداني، 2006.)، فاللغة الأدبية تختلف عن اللغة العملية أو الواقعية، "... لأن التخييلية الأدبية تدل على أن الكائنات البشرية لا يمكن أن تكون حاضرة من أجل ذواتها، فإنها تتضمن شرط كوننا مبدعين إلى حدود غايات أحلامنا دون أن يسمح لنا أبدا بالتطابق مع ذواتنا من خلال ما نبدعه، فما نبدعه فعلا هو قابلية تصور هذا الاستعداد الأساسي". (إيزر، 1998:

105.) فالقول السابق يدل على أن النصوص الأدبية هي أداة لإثارة المتلقي من خلال ما تحمله من معاني ودلالات، وما تحققه من تواصل بينها وبين المتلقي، فتأويل النصوص، وقراءتها يعد نشاطًا انفعاليًا، حيث تكمن جاذبية القراءة إلى درجة كبيرة في الأحاسيس التي تثيرها فينا. فإذا كان تلقي النص يعبئ عند قارئه ملكاته الفكرية، فإنه يهيج عاطفته، من خلال التفاعل مع عناصر ومجريات النص الأدبي (سحلول، 1995.)؛ فالأبعاد الدلالية التي تتولد في ذهن منتج النص أولاً، وفي ذهن المتلقي ثانيا هي من تكمن فيها قصدية النص. (لحميداني، 2006.).

ويسعى المتلقي بدوره للكشف عن مكنونات النصوص بتحليل معانيها الظاهرة والمتمثلة في القوة الإنجازية المباشرة، إلى المعاني الخفية والتي تتمثل في القوة الإنجازية غير المباشرة؛ والتي تستلزم وتفهم من سياق النص الواردة فيه، وستقوم هذه الدراسة باستخراج الأفعال الكلامية في رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز، ببيان القوة الإنجازية المباشرة والقوة الإنجازية غير المباشرة فيها؛ حتى يتسنى لنا كشف المقاصد الظاهرة والخفية لهذه الرسالة، والتي تمنحها زخم في المعاني بطاقة تعبيرية عالية، تعكس الذوق الأدبي لدى الحسن البصري وقدرته العالية على التأثير في متلقي إنتاجه الأدبي.

نص الرسالة

"كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما ولى الخلافة إلى الحسن بن أبى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: "اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب

المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقرّ.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا، ووضعته كرهًا، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده.

والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريدًا وحيدًا. فتزود له ما يصحبك {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} [عبس:34-36]

واذكر يا أمير المؤمنين {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ. وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} [العاديات:9-10]، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت

في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة النبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحى القيوم.

إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي، فلم آلك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته". (ابن عبد ربه، 1940: 26).

القوة الإنجازية للأفعال الكلامية

تضمَّنت رسالةُ الحسن البصري ضروباً من الأفعال الكلامية، مثل: النداءِ، والأمرِ، والنهي، والتحذيرِ، والاستفهامِ، والقسمِ. وفيما يلي بيان الانزياحات القصدية للأفعال الكلامية:

النداء

في قوله: "يا أمير المؤمنين"، وقد تكرَّر النداء بهذه الصيغة أكثر من مرة، ليس الغرضُ منه طلبَ الإقبال المباشر، ولكن الفعل الكلامي خرج عن القوة الإنجازية المباشرة إلى قوة إنجازية غير مباشرة، تفهم من خلال السياق، فالقصد من النداء هو التنبيه؛ لغرض التوجيه وتقديم النصح والإرشاد، فالمنادى هو (أمير المؤمنين)، والمتكلم هو (الإمام الفقيه) الذي يستشعر دوره المستلزم تجاه تنبيه وتوجيه الحاكم؛ حتى يكون عوناً له في مواجهة الحياة ومشاقها.

الأمر

وردت أفعال الأمر في الرسالة (اعلم، اذكر، انظر، تزوَّد)، في أكثر من موضع، فالقوة الإنجازية المباشرة لهذه الأفعال ليست مقصودة، فالمتكلم لا يقصد طلب القيام بهذه الأفعال على وجه الإلزام، إنما المراد هو القوة الإنجازية غير المباشرة للفعل الكلامي، والتي أصبحت مستلزمة تفهم من السياق، فالمقاصد الخفية تتمثل في التنبيه؛ حيث أراد المتكلم تنبيه المتلقي، إلى أن يحصن نفسه من غلبة الهوى عليها في مجريات الأمور، فيطلب المتكلم من المتلقي أن يكون رأيه صادراً عن وعي ودراية وتدبر وتفكر، لا عن هوى ورغبة يمكن أن تؤدي به إلى المهالك، فخرجت أفعال الأمر من القوة الإنجازية المباشرة لها، والتي تفيد طلب القيام بالفعل، إلى قوة إنجازية غير مباشرة تفيد النصح والتوجيه والإرشاد.

النهي

خرجت الأفعال الكلامية في قوله: "فلا تكن، لا تحكم، لا تسلك، لا تسلط، لا يغرنّك، لا تنظر"، عن القوة الإنجازية المباشرة للنهي، والتي تفيد طلب الكف عن الفعل إلى قوة إنجازية غير مباشرة تتناسب مع سياق الوعظ والإرشاد، فالمتكلم مستمر في نصح وتوجيه المتلقي، فأراد من خلال هذا الفعل الكلامي أخذ الحيطة والحذر.

الاستفهام

قدم الحسن البصري سؤالين في النص السابق، وهما قوله:(فكيف إذا أتاها من يليها؟)، وقوله: (فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟)، وقد أسهمت أدوات الإستفهام في تحقيق الانسجام داخل النص، فجعلته خطاباً حواريا بينه وبين المتلقي مبنياً على المساءلة، ولم يقصد المتكلم الاستفهام بمعناه الحقيقي، والذي يتطلب العلم بالشيء، فخرج الاستفهام من القوة الإنجازية المباشرة له؛ إلى قصد المتكلم من هذه التساؤلات والذي تعكسه القوة الإنجازية غير المباشرة والتي تحمل معنى الحيرة والتعجب، وطلب مراقبة النفس وزجرها عن المحرمات والفواحش.

الخاتمة:

فمن خلال دراسة رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز، من منظور اللسانيات الحديثة ببيان القوة الإنجازية للأفعال الكلامية فيها، قد خَلُصت إلى أهم النتائج التي توصَّلتُ إليها في هذا البحث وهي:

1- حملت رسالة الحسن البصري لعمر بن عبد العزيز مقاصد عدّة ظاهرة وخفية، انطلاقا من أنَّ المقاصد لب العملية التواصلية، والتي تنشأ بين المرسل والمتلقي، بواسطة الخطاب، عكس من خلالها القيمة الأدبية لهذه الرسالة، ومقدرة الحسن البصري في تحقيق التأثير والإقناع.

2- إنَّ تداولية الأفعال الكلامية، أتاحت لتحليل الخطاب الأدبي في هذه الرسالة، رؤية لسانية ومنهجاً جديداً، حيث كشفت الأفعال الكلامية من النداء، والأمر، والنهي، والاستفهام، عن مكنونات الرسالة بتجاوز معانيها الظاهرة والمتمثلة في القوة الإنجازية المباشرة إلى المعاني الخفية والتي تتمثل في القوة الإنجازية غير المباشرة؛ والتي تستلزم وتفهم من سياق النص الواردة فيه، ما أتاح الكشف عن مقاصد تكتنف هذه الرسالة، والتي تحمل طاقةً إبداعيةً تعكس قيماً ارشاديةً وعظيةً وتوجيهيةً عِدَّة.

3- عكست اختيارات الحسن البصري في مواعظه ووصاياه روعةً وجمالاً في التراث الأدبي، ورسالته السامية، التي كشفت عن قدرة عالية ومعرفة باللغة، وقوةٍ في الذاكرة، وسلامة في الذوق، وقابلية على التأثير في نفوس المتلقين عبر العصور، فالنصوص التراثية عرضة لتأويلات عدّة، وقراءات متباينة، باختلاف معارف وثقافة كل متلقٍ.

المصادر والمراجع

1. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد. (1940م). العقد الفريد. تحقيق: محمد سعيد العريان. (ط1). القاهرة: دار الفكر.
2. أوستين، جون لونغشو. (1991م). نظرية أفعال الكلام العامة كيف ننجز الأشياء بالكلام. ترجمة: عبد القادر قنيني. (د. ط). الدار البيضاء: دار إفريقيا الشرق.
3. إيزر، فولفغانغ. (1998م). التخييلي والخيالي من منظور الأنطربولوجية الأدبية. ترجمة: حميد لحمداني، الجلالي الكدية. (ط1). الدار البيضاء: مطبعة النجاح.
4. بحيري، سعيد. (د.ت). دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة. (د. ط). القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
5. سحلول، حسن. (1995م). "مشكلة القراءة والتأويل في النص الأدبي". مجلة آفاق المعرفة. سوريا. ع (38).
6. سيرل، جون. (2006م). العقل واللغة والمجتمع الفلسفة في العالم الواقعي. ترجمة: سعيد الغانمي. (ط1). الجزائر: منشورات الاختلاف. المغرب: المركز الثقافي العربي. لبنان: الدار العربية للعلوم.
7. الشهري، عبد الهادي بن ظافر. (2004م). استراتيجية الخطاب: مقاربة لغوية تداولية. (ط1). بيروت: دار الكتاب الجديد.
8. صحراوي، مسعود. (2005م). التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث اللساني العربي. (ط1). بيروت: دار الطليعة.
9. عبد الحق، صلاح إسماعيل. (1993م). التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد. (ط1). بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر.
10. عبد المطلب، محمد. (1994م). البلاغة والأسلوبية. (ط1). القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان.
11. العبد، محمد. (2005م). تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب. مجلة النقد الأدبي فصول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
12. العبد، محمد. (2014م). النص والخطاب والاتصال. (د.ط). القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي.
13. العزاوي، أبوبكر. (2006م). اللغة والحجاج. (ط1). الدار البيضاء: العمدة في الطبع.
14. لحميداني، حميد. (2006). "نظرية قراءة الأدب وتأويله من المقصدية إلى المحصلة". مجلة علامات، المغرب، ع (26).

15.مفتاح، محمد. (1990م). مجهول البيان. (ط1). الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

16.موشلار وروبول، آن، جاك. (2003م). التداولية اليوم علم جديد في التواصل. ترجمة: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني. مراجعة: لطيف زيتوني. (ط1). بيروت: دار الطليعة.

17.ناظم، حسن. (1994م). مفاهيم الشعرية (دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم). (ط1). بيروت: المركز الثقافي العربي.

18.نخلة، محمود أحمد. (2002م). آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. (د. ط). مصر: دار المعرفة الجامعية.